بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير القرآن الكريم

سورة التكاثر

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » صدق الله العظيم .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مكان نزولها وآياتها :

هى سورة مكية على الراجح ، وآياتها ثمان بالاتفاق .

سبب نزولها :

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة قال : « نزلت هذه السورة فى قبيلتين من قبائل الأنصار ، وهم بنو حارثة ، وبنو الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى مثل ذلك .

تفاخروا بالأحياء ، ثم انطلقوا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ وتشير إلى قبره ، وفعل الآخرون مثل ذلك . فأنزل الله : « ألهاكم التكاثر » الخ .

الكلام على المعنى

«ألهاكم التكاثر»

« ألهاكم » : شغلكم ، يقال : ألهاه يلهيه إذا شغله حتى صرف ذهنه عن سوى ما التهى به .

« التكاثر » : هو التبارى فى الكثرة ، والتباهى بها ؛ بأن يقول قوم : نحن أكثر ، ويقول آخرون كذلك .

«حتى زرتم المقابر»

حتى انتقلتم إلى القبور ، فتفاخرتم وتكاثرتم بمن فيها .

والمعنى على هذا : إن الأمر فى التكاثر والتفاخر ، والتباهى والتعاظم ، قد ارتقى بكم من ذكر الأحياء وتعداد مناقبهم ، إلى أن انتقلتم إلى القبور فتفاخرتم بمن فيها من عظماء الأموات .

ونقول : إن التفاخر بالآباء والأجداد والأحساب والأنساب ، داء فشا فى جسم الأمة حتى استشرى ، ومرض انتاب فى كيانها حتى استعصى ؛ فكك أوصالها ، وقطع أسبابها ، وأكثر بينها التلاحى والتنابز .

ولو أنها تدبرت فى هـــذه السورة الكريمة ومثيلاتها من كنوز القرآن ، لبرئت من لوثة الفرقة ، وجمعت قلوبها على وحدة الرأى ، وسارت فى الحياة سيراً لا تخلخل فيه ولا اضطراب .

وفسر بعضهم « التكاثر » بما هو أوسع مما تقدم ، فقال: هو التباهى بالكثرة مطلقاً ؛ بأن يقول كل للآخر : أنا أكثر منك ولدا ، أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك رجال حرب وضرب ، إلى غير ذلك .

والمعنى : شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأولاد والأموال والأشياع ،

وصرفكم عن الجد فى العمل ، فكنتم فى لهو بالقول عن العمل ، وفى غفلة بالغرور والإعجاب بما ذكر ، فلا تصرفوا القوى فى القيام بما فرض عليكم لأنفسكم وأهلكم ووطنكم ، واستمر بكم ذلك حتى قاربتم أن تكونوا من أهل المقابر .

وحمل بعضهم « التكاثر » على الحرص فى تكثير المال وإنمائه ، غير ملتفت إلى سبب النزول ، لضعفه عنده ، وجعل صيغة التفاعل على غير بابها ، مريداً منها التكثير .

والمعنى : شغلكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى قاربتم الأجل وشارفتم الموت .

فكلمة « ألـ » فى التكاثر للعهد ، والمعهود هو التكاثر فى الدنيا ولذاتها ، ومتاعها وعلائقها ، فإنه هو الذى يلهى عن طاعة الله وعبادته ، وذلك التكاثر هو المذموم الممقوت .

أما التكاثر فى السعادات الحقيقية كالطاعة وإتقان العبادة ، فهو غير مذموم ، بل يجوز التفاخر به ، ليقتدى به غيره ، ويترسم الناس طريقته .

وإنما حذف الملهى عنه ، ولم يقل : ألهاكم عن كذا ، لأن المطلق أبلغ فى الذم ، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، كذكر الله ، والواجبات والمندوبات ، والتفكر والتدبر ، والمعرفة والطاعة ، وغير ذلك .

وفى قوله تعالى : « زرتم » إشارة إلى تحقق البعث ، لأن الزائر منصرف لا مقيم .

فقد حكى أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة ! فإن الزائر منصرف لا مقيم .

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لما سمع هذه الآية :
يرجع إلى جنة أو نار .

وفيه أيضاً إشارة إلى قصر زمن اللبث فى القبور ، لأن الزيارة فى العادة تكون لماما .

وأقول : كم فى القرآن الكريم من إشارة أفصح من الإطناب ، وإيماء أبلغ من الإسهاب ، يدركه كل من وثق الصلة به ، ونظر إليه بعقل سليم .

« كلا سوف تعلمون »

« كلا » حرف ردع وزجر . و « سوف » : للزمن البعيد . « تعلمون » : تعرفون .

والمعنى : ارتدعوا عن الاشتغال بما لايعنى من التكاثر والتفاخر ، فإنه يورث القظيعة ، ويزرع الضغينة .

وسوف تعلمون مصيركم إذا دمتم على هذه الحال ، بدون التفات إلى ماينفعكم من صالح الأعمال ، وجليل الخصال .

ولما كانت عواقب اللهو إنما تأتى بعد إمهال من الله ، وإنظار فى الأغلب ، عبر النظم الكريم بكلمة « سوف » التى تفيد التسويف والتأخير .

« ثم كلا سوف تعلمون »

تكرير للجملة السابقة ، لتأكيد الردع والرد عليهم . وكلمة « ثم » دالة على أن الثانى أبلغ من الأول ، كما يقول العظيم لعبده : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل ، فتفيد البعد فى رتبة العذاب فى الآخرة .

ويروى عن الإمام على أن المعنى: سوف تعلمون سوء عاقبتكم فى الدنيا ، ثم سوف تعلمون ذلك فى الآخرة .

وبناء عليه لا يكون فى الكلام تكرير ، بل هـذه الجملة تفيد معنى جديداً مغايراً لما أفادته الأولى ، وتكون كلمة « ثم » على بابها مفيدة للتراخى فى الزمان . والأكثرون على الأول .

« كلا لو تعلمون علم اليقين »

الإضافة فى « علم اليقين » من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى علماً يقيناً لاشك فيه .

والمعنى : لو تعلمون ما أنتم عليـــه وعاقبته الوخيمة علماً لا شك فيـه ولا ارتياب ، لشغلكم هذا العلم عن التفاخر والتكاثر ، واللهو والعبث ، وصرفكم إلى صالح الأعمال .

وإنما ذكر سبحانه وتعالى هذه العبارة زيادة فى ردعهم عما هم عليـه من تغريرهم بأنفسهم . فقد جرت العادة أنك إذا نبهت أناسا إلى ما هم عليـه من الغفلة ، وذكرتهم بعواقب أعمالهم ، زعموا أنهم يعلمون العواقب ، ويدركون ما يؤدى إليه حالهم .

وكأنه سبحانه وتعالى يقول لهم : ارتدعوا عما أنتم عليـــه ، ولا تظنوا أنكم تعلمون عواقبه ، فإن هـذا الذى تظنونه علماً . ليس على التحقيق علماً ، بل هو وهم لا يلبث أن يتبدد إذا صدمتكم الحقيقة ، وقرع أسماعكم فادح العقاب .

« لترون الجحيم »

جواب قسم مضمر ، والرؤية بصرية ، والتقدير : والله لتبصرن الجحيم يوم القيامة . وإنما جىء بهذا القسم ، لتأكيد الوعيد ، وتشديد التهديد ، وإيضاح ما أنذروه بعد إبهامه ، تفخيما لشأنه .

والمعنى : إن دار العذاب التى لا يمنعكم الآن تصورها عن اللهو بالباطل ، مع أنها جزاء من يلهو به عن الحق ، هى ثابتة لا ريب فيها ، ووالله لتبصرنها بأعينكم يوم القيامة . فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم لتكون منبهة لكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

« ثم لترونها عين اليقين »

يجوز أن تكون هذه الجملة مؤكدة للوعيد المستفاد من الجملة الأولى .

ولعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد ، فكرر لذلك . والتوكيد فى « لترون » يقتضى كون الرؤية اضطرارية ، أى لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها ، ولكنكم تحملون على رؤيتها ، شئتم أو أبيتم .

ويجوز أن تكون الرؤية الأولى قبل دخولهم فيها ، والثانية بعده .

ويجوز أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة ، ويكون ذكر الرؤية مرتين لإفادة تتابعها واتصالها ، لأنهم مخلدون فى الجحيم .

فكأنه قيل لهم على جهة الوعيد : لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين فسترونها رؤية دائمة متصلة ، تزول بها الشكوك ، وتتبدد بها الأوهام .

وكلمة « عين » فى قوله : « عين اليقين » بمعنى نفس ، أى سترونها رؤية هى نفس اليقين .

وذلك لأن انكشاف الأشياء بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات ، فهو أحق بأن يكون اليقين عينه على سبيل المبالغة .

و (اليقين) فى اللغة هو العلم الذى لا شك فيه ، وفى الشرع هو اعتقاد الشىء أنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا ، اعتقاداً مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال .

الفرق بين : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين

علم اليقين : هو إدراك الشىء على ما هو عليه بواسطة الدليل .

عين اليقين : هو إدراك الشىء بواسطة المشاهدة .

حق اليقين : هو إدراك الشىء بالدليل والمشاهدة والبصيرة .

وكنى برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها . وهى كناية شائعة فى الكتاب الكريم .

«ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»

الخطاب للكفار ، وكذلك الخطابات السابقة . و « النعيم » كل ما يتلذذ به . والسؤال سؤال توبيخ وتقريع ، لأنهم لم يشكروا ذلك النعيم بالإيمان والتصديق والإذعان والتسليم .

وهذا السؤال يكون بعد رؤية الجحيم ودخولها ، وما ذاك إلا لأن السؤال فيها يكون أكثر توبيخاً ، وأشد إيلاماً ، وأدعى للاعتراف بالتقصير .

نسأل الله أن يبصرنا بعيوبنا ، وأن يرشدنا إلى سلوك الخير ، وأن يسلك بنا طريق السداد ، وسبيل الرشاد ، والله ولى التوفيق .

عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة